مراحل التصوف الاسلامي

بعد أن حددنا مفهوم التصوف في الاسلام بوجه عام يحسن أن نشير إلى مراحل تطوره بايجاز.

والمرحلة الأولى فى نشأة التصوف هي التي تسمى بمرحلة الزهد، وهي واقعة في القرنين الأول والثاني الهجريين، فقد كان هناك أفراد من المسلمين اقبلوا على العبادة بأدعية وقربات، وكانت لهم طريقة زهدية في الحياة تتصل بالماكل والملبس والمسكن، وقد أرادوا العمل من أجل الآخرة، فأثروا لانفسهم هذا النوع من الحياة والسلوك،ونضرب لاولئك مثلا الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ ، ورابعة العدوية المتوفاسنة ١٨٥هـ ، وقد خلت تلك الفترة من التنظير واتخذت الوعظ وسيلة ولهذا يسميها بعض الباحثين فترة «الزهد البسيط» .

وفي أواخر تلك الفترة ظهرت كتابات نظرت للزهد ولهذا يسمي بعض الباحثين الفترة الثانية بـ «الزهد المنظم» من قبيل كتاب الزهد للمحدث الحسين بن سعيد الكوفي وكتب الحارث البصري المحاسبي الرعاية لحقوق الله وكتاب ابن المبارك وكتاب ابن حنبل في الزهد.

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الصوفية وقد عنوا بالكلام في دقائق أحوال النفس والسلوك ، وغلب عليهم الطابع الاخلاقي في علمهم وعملهم نصار التصوف على أيديهم علما للاخلاق الدينية ، وكانت مباحثهم الاخلاقية تدفعهم الى التعمق في دراسة النفس الانسانية ودقائق احوال سلوكها . وكانت تقودهم احيانا الى الكلام فى المعرفة الذوقية وأدائها ومنهجها ، والى الكلام عن الذات الالهية من حيث صلتها بالانسان وصلة الانسان بها، وظهر الكلام في الفناء الصوف خصوصا على يد البسطامى، ونشأ من ذلك كله علم الصوفية يتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية ، له لغته الاصطلاحية الخاصة التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم ، ويحتاج فهم مراميها إلى جهد غير قليل . وقد ظهر هذا العلم) وهو كما أشرنا من قبل يعتبر من علوم الشريعة (بعد ظهور التدوين كما يشير اليه ابن خلدون قائلا، فلما كتبت العلوم ودونت ، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك ، كتب رجال من هذه الطريقة (أى الصوفية) في طريقهم ، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء فى الاخذ والترك ، كما فعله القشيرى فى الرسالة ، والسهروردي (البغدادى) في كتاب و عوارف المعارف . نصار علم التصوف فى الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط . ومن ناحية أخرى نجد بعض شيوً التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، كالجنيد والسري السقطى والخراز وغيرهم، يجمعون حولهم المريدين من أجل تربيتهم فتكونت لاول مرة الطرق الصوفية في الاسلام التي كانت آنذاك بمثابة المدارس التى يتلقى السالكون فيها آداب التصوف علما وعملا ، فهذه الفترة هي مرحلة ظهور التصوف بمعناه الحقيقي.

وكان هناك في القرن الثالث الهجرى أيضا نوع من التصوف يمثله الحلاج الذى أعدم المقالته في الحلول سنة ٣٠٩م ، ويبدو أنه كان متاثرا فيه بعناصر أجنبية عن الاسلام ، وظهر فيها أيضا ابو يزيد البسطامي والجنيد البغدادي و غير هؤلاء كثير. وتلك الفترة اشتهرت بالشطحات التي ظهرت على ألسن بعض الصوفية مما أدى الى نعتهم بالحلول والاتحاد .

ثم جاء الامام الغزالي في القرن الخامس الهجرى فلم يقبل من التصوف الا ما كان متمشيا تماما مع الكتاب والسنة ، ورامیا إلى الزهد والتقشف وتهذيب النفس واصلاح اخلاقها ، وقد عمق الغزالى الكلام في المعرفة الصوفية على نحو لم يسبق اليه ، وحمل على مذاهب الفلاسفة والمعتزلة والباطنية ، ويخالف تصوف الحلاج والبسطامي في الطابع. ومنذ القرن السادس الهجرى أخذ نفوذ التصوف السني في العالم الاسلامي يزداد بتأثير عظم شخصية الغزالي .

وظهر صوفية كبار كونوا لانفسهم طرقا لتربية المريدين منهم السيد احمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٠هـ ، والسيد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٦٥١ ه . ومن المعتقد أنهما متأثران بتصوف الغزالي.

ثم ظهر و القرن السابع الهجري آخرون ساروا على نفس الطريق، أبرزهم أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦م ، وتلميذه أبو العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، وتلميذهما ابن عطاء الله السكندرى المتوفى سنة ٧٠٦هـ ، وهم اركان المدرسة الشاذلية في التصوف ، ويعتبر تصوفهم أيضا امتدادا لتصوف الغزالي السني .

على أنه منذ القرن السادس الهجرى أيضا نجد مجموعة أخرى من المتصوفة الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة ، فجاءت نظرياتهم بين بين . لا هي تصوف خالص ، ولا هي فلسفة خالصة. نذكر من هؤلاء السهروردي المقتول صاحب حكمة الاشراق ، المتوفى سنة ٥٤٩ هـ . والشيخ الاكبر الدين بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ. والشاعر الصوفي عمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ. وعبد الحق بن سبعين المرسى المتوفى سنة ٦٦٩ه ، ومن نحا نحوهم فى التصوف ، وواضح أنهم قد استفادوا من عديد من المصادر والآراء الاجنبية كالفلسفة اليونانية خصوصا مذهب الافلاطونية المحدثة . وقد قدم لنا أولئك الصوفية نظريات عميقة في النفس والاخلاق والمعرفة والوجود لها قيمتها من الناحيتين الفلسفية والتصوفية ، كما كان لها تأثيرها على من تلاهم من الصوفية المتأخرين .

وبظهور متفلسفة الصوفية الذين ذكرنا أصبح في التصوف الاسلامي تياران، أحدهما سنى يمثله رجال التصوف المذكورون في رسالة القشيري ، وهم صوفية القرنين الثالث والرابع الهجرى خصوصا ، ثم الغزالي ، ثم من تبعهم من مشايخ الطرق الكبار، وكان تصوف هؤلاء جميعا يغلب عليه الطابع الخلقى العملى، والآخر فلسفى يمثله من ذكرنا من متفلسفة الصوفية لذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة . وقد أثار متفلسفة الصوفية فقهاء المسلمين واشتدت الحملة عليهم لما ذهبوا اليه من القول بالوحدة الوجودية ، وكان أبرز من حمل عليهم ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ه .